وقـــفات مع بلاغـــــة النّـــبيّ - صـــلّى الله عـــليه وسلّـــم- دراسة بلاغيّة تحليليّة

Insights from the Prophet (PBUH)'s rhetoric Analytical rethorical study

عبدالرّحمن بلحنيش *

تاريخ تقديم البحث **2017/11/14** تاريخ القبول **2018/3/14**

ملخص

يتناول هذا المقال مسألة بلاغة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وإتقانه لضروب من القول جعلت الكثير من فصحاء العرب يكرونه ويعجبون من فصاحته، وهو دوما يقول :" أنا أفصح العرب.. "، نحاول في هذه المساحة من البحث إماطة اللّثام عن نصاعة كثير من الأقوال وما امتازت به من دقّة في التصوير، وسهولة في البيان، واختصار غير مخلّ بالمعنى المراد، كجوامع كلمه ، وانفراده بأقوال لم يسبقه إليها أحد، أضف إلى ذلك تشبيهاته وأمثاله الرائعة الّتي راح يبين بها مقاصده ومراميه، ناصحا وواعظا ومحذّرا ومرغّبا في آن.فكان سجعه وتجنيسه ومقابلاته تنساب انسيابا، دون تكلّف أو تصنّع كيف لا وهو النّاهي عن سجع الكهّان.

الكلمات الدالة: بلاغة -فصاحة -استعارة-تشبيه-كناية-سجع-جناس-أساليب-الإيجاز.

Abstract

This article sheds light on the Prophet's (PBUH) rhetorical skills and his mastery of the speech arts which led the Arab linguists to like his fluency and glorify him. He always says: " How comes that I make a mistake since I am the most fluent amongst Arabs". In the present paper, we try to emphasise many of the prophet's important says and their accuracy in depiction, clear portrayal and precision as well as concision while preserving the intended meaning. In addition to be the primary source of different expressions, his self-expressive maxims, aphorisms and analogies advised , preached and warned as well as gave the willies. Last but not least, the prophet's use of paronomasia and other meaning enhancers is said to be fluent and natural which reflects his predisposed proficiency as a native speaker of Arabic.

Keywords

Rhetoric- Fluency- Metaphor- Analogy- Connotation- assonance- Paronomasia- Styles- Concision

* قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الآداب واللغات ،جامعة ابن خلدون، تيارت ، الجزائر .

تمهيد

علم الحديث أشرف العلوم بعد القرآن وأفضلها وأعلاها منزلة، كيف لا؟ وهو ثاني الوحيين ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾، النّجم الآية04. به فهم الدّين وشرحت آيات القرآن الحكيم، بلسان عربيّ مبين. دعانا صاحبه بقوله: "عليكم بسنّتي...."[1]حفظا واتّباعا لهديه. به تقام شرائع الدّين، من فقه وأحكام. تسابق إليه المحَدِّثون، والفقهاء والعلماء تشريعا وتأصيلا إذ هو المصدر الثاني من حيث الاستدلال لهذا الدّين.هذا الحديث عنوان لبلاغة صاحبه وذلك لدوافع عديدة يقتضيها مقام النّبوّة والرسالة الدّعوية، ولدواع تقتضي تنويع الأساليب الخطابية ترويحا ودفعا للملل عن المريدين أوّلا والنّاس كافّة ثانيا. ولعلّ فنون بلاغة القول الّتي أتقنها –عليه الصّلاة والسّلام- هي الّتي فعلت فعلها وقوي أثرها في كثير من النفوس الصّافية فيمن أدركوا ذلك وهم أهل لسان وفصاحة وبيان، مّمن يعرف قيمة الكلمة وتأثيرها. لذلك كان (ص) يعرف نفوس العرب وما يطربون له من بيان فتراه ينوّع في مختلف الأفانين من القول حسب مقتضى الحال آسرا لنفوس مخاطبيه بدقّة في استعمال كلماته وجزالة ألفاظه وحسن تعبيراته ومتانة تراكيبه بروعة في تصوير المعاني لتكون حيّة في قلوب من يسمعها فإذا هي تنبض بالحياة في قلوبهم هاديّة لهم لهذا الدّين مبيّنة لدقائقه وحقائه، قد انسابت منه انسياب المياه العذبة الرّقراقة في سلاسة ويسر، فهي لديه مطواعة ليّنة هيّنة.

أسلوب الرسول –صلى الله عليه وسلم- البلاغي

يمتاز بوضوح العبارة وبصناعة اللغة، وُسِمَ بالسّهل الممتنع كيف لا وهو القائل: أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش.

كان أسلوبه سهلا متينا في آن، باستعماله ألفاظ ميسورة متداولة لا يستهجنها أحد بل يجدها كل من يسمعها عذبة يعجب لها فتأسره؛ ومن ذلك أيضا اعتماده جمل تركيبية سهلة وفق سنن العرب ونهجهم، ترتيب مألوف لا تعقيد ولا تنافر، ألفاظ لا يمجّها السامع بل يقبل عليها إقبال النّحل على الشّهد، فلا تكلف ولا تصنّع، تنبئ عن سليقة وموهبة رفيعة، وإنّما هذا نابع عن ملكة وقدرة في صوغ الصور البليغة والعبارات البديعة الأنيقة الرائعة، أليس هو القائل :"أوتيت جوامع الكلم ومثله معه-وفي رواية-واختصر لي الحديث اختصارا."[2]، فما أوتيه من جوامع الكلم جاء في عبارات موجزة مزخرفة رقيقة كقوله: (الدين النصيحة)، (التجار فجّار)، (من غشّنا فليس منّا)؛ تستوعبها الذاكرة في يسر بل وتجسّد الثواب والعقاب تجسيدا محسوسا من ذلك الاستعارات البليغة الواردة في عبارات بديعيّة (الصدقة تطفئ

الخطيئة) استعارة من جهتين، من جهة تشبيه الصدقة بالماء والخطيئة بالنار والقرينة المانعة (تطفئ).

كما اعتمد التقرير لماذا ؟ لأن محمدا –صلى الله عليه وسلم- بعث رسولا مبلغا رسالة ربه- هاديا إلى سواء الصراط محذّرا سبل غضب الله من ذلك حديث عمر أخبرني عن الإسلام، عن الإيمان، عن الإحسان، عن الساعة."[3]

كما نراه مربّيا معلّما معتمدا الحوار البنّاء، طلب واستفهام، حقيقيا كان أم إنكاريا؟ أتدرون من المفلس؟ أتدرون ما حقّ الجار؟ ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم، تقرير وتعجب.

فأحاديثه نماذج للعبارة المتينة والصياغة البديعة، والمعنى السديد والفكرة الصائبة، روعة في التركيب جمال في الصورة، سمو في البلاغة.

منهجه في بلاغته

لا يدع موطنا أو فرصة إلاّ واغتنمها فهو الدّاعي إلى سبيل ربّه، غايته: علاج نفوس ورتق فتوق، تثمين لمزايا في أصحابها، قوّة وقدوة كقوله: (اللهم انصر الإسلام بأحد العمرين)، فهو يعني عمرو بن هشام (أبا جهل) وعمر بن الخطّاب، فودّ لو كانت قوّة هذين الرجلين للإسلام والمسلمين.

أساليب متنوعة: خطاب وعد ووعيد ترهيب وترغيب يروم إيصال فكرة، هدفه البلاغ، الإقناع والارتفاع بأصحابه عن حضيض الأرض فغدو سادة الأمم. فهو المعلّم والمربّي لا يدع فكرة أو وسيلة للإقناع إلا وانتهجها (كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل)، لذلك خلب لبّ أصحابه، فأحبّوه أمّا أعداؤه فوقفوا منه موقف الحائر فهابوه، فقد روى البيهقي في سننه عن عليّ بن أبي طالب في وصفه للنبيّ عليه الصّلاة والسّلام، قال: "..من خالطه معرفة أحبّه، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى اللّه عليه وسلّم."[4]

آراء الأولين والآخرين في بلاغة وفصاحة سيّد المرسلين (صلى الله عليه وسلم)

لقد أورد السيوطي في مزهره عنوانا وسمه بـ: 'إيحاء اللغة إلى النبي ' قال أبو أحمد الغطريف في كشف الظنون في رواية مسنودة تصل إلى عمر بن خطاب أنه قال: يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: (إن لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفّظنيها فحفظتها) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ص34. ([5])

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمي عن أبيه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم دجيّ (غائم) كيف ترون

بواسقه؟ (السحابة البيضاء الصافية) قالوا: ما أحسنها وأشدّ تراكمها ! قال: كيف ترون قواعدها ؟ قالوا ما أحسنها وأشد تمكّنها! قال: كيف ترون جونها ؟ قالوا: ما أحسنه وأشدّ سواده! قال كيف ترون رحاها استدارت! قالوا نعم ما أحسنها وأشدّ استدارتها، قال كيف ترون برقها ؟ أخفيا أم وميضا أم يشق شقا ؟ قالوا: بل يشقّ شقا، فقال: الحياء -يقصد الخصب والمطر ويمدّ- فقال رجل: يا رسول الله ما أفصحك ما رأينا الذي هو أعرب (أفصح) منك ! قال: حق لي، إنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين.

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:مثّلت لي أمّتي في الماء والطّين وعُلِّمْتُ الأسماء كلّها كما عُلِّمَ آدمُ الأسماءَ كلها. (6). فهذا من اصطفاء اللّه له، نظرا لما تمتّع به من جليل الصّفات أهّلته لأن يكون حاملا لآخر رسالة سماويّة، مبعوثا رحمة للعالمين، في أمّة أمّيّة تميّزت عن سائر الأمم، بما ملكت من بيان؛ وهذا علي بن أبي طالب يقول: ما سمعت كلمة عربية من العرب إلاّ وقد سمعتها من رسول الله صلّى الله عليه وسلم، سمعته يقول: مات حتف أنفه، وما سمعته من عربي قبله (7).

جاء في أوصافه لحاله ومنطقه وسائر أوصافه أنه كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليس له راحة ولا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (الإبانة وإخراج الحروف من مخارجها) ويتكلم بجوامع الكلم فضلا لا فضول فيه ولا تقصير...(8)

ثم ما قاله هو عن نفسه: أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش ورُبِّيتُ في بني سعد بن بكر...(9)، ثم تحدّث عن فصاحته و ما امتاز به عن غيره بجوامع الكلم فيقول: أعطيت جوامع الكلم، ومثلها معها-وفي رواية- واختصر إلي الكلام اختصارا (10). ومعنى جوامع الكلم، واختصار الكلام: الإيجاز، والبلاغة الإيجاز كما يرى البلاغيون، فقد بزّ القائلين بخطب قصيرة، جامعة لفنون القول، وضروب الكلام، دون تكلّف أو تشدّق بل ببساطة في منتهى الفصاحة والبيان.

وتروي السيّدة عائشة عنه فتقول –رضي الله عنها- :" ما كان يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلامٍ بَيِّنٍ فصلٍ، يحفظه من جلس إليه". إشارة منها إلى جوامع كلمه، ثم تعضد هذا القول بقول آخر، فتقول: كان يحدث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه، فهي ألفاظ قليلة ومعان عديدة جليلة.

كما ذكر أنّ عليا خاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سمعه يكلم الوفود بلهجاتهم قائلا: "نحن بنو أب واحد فأنّى لك هذه الفصاحة، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره"، فقال: أدّبني ربي فأحسن تأديبي !

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين، واصفا لكلامه- عليه الصّلاة والسّلام-: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب والوحشي وغرب عن الهجين السوقيّ فلم ينطق عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة وشدّ بالتأييد ويسرّ بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام، هو مع استغنائه عن إعادته وقلّة حاجة السامع إلى معاودته، فلم تسقط له كلمة ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حجّة ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يندّ الخطب الطوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصّدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطّئ ولا يعجّل ولا يسهب ولا يعسر، ثمّ لا يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه من كلامه –صلى الله عليه وسلم-(11)".

ما ذكرنا آنفا هو ما قاله عنه بعض الأولين، والآن نورد بعض ما قاله المعاصرون:

يقول الرافعي في باب اجتماع كلامه وقلّته صلى الله عليه وسلم: "ومن كمال تلك النفس العظيمة، وغلبة فكره - صلى الله عليه وسلم – على لسانه قلّ كلامه وخرج قصدا في ألفاظه، محيطا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها: فلا ترى من الكلام ألفاظا ولكن حركات نفسية في ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه...(12). ويقول عن فصاحته: " كان أفصح العرب على أنه لا يتكلّف القول ولا يقصر في تزيينه ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ عن المعنى الذي يريده ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستزله الفجاءة ولا يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة" (13).

ونورد رأي البوطي الذي يصف فصاحته –صلى الله عليه وسلم- من خلال نص حديث أورده مكبرا هذه الفصاحة منبهرا بها، يقول: "روى الحاكم وابن مردويه أن الرسول – صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى معاذ يعزّيه في ابنه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى معاذ بن جبل: سلام عليك، فإني أحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، أعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر، فإن أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا

من مواهب الله عزّ وجل الهيّنة وعواريه المستودعة، نتمتّع بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهيّنة وعواريه المستودعة أمتعك الله به غبطة وسرورا وقبضه منك بأجر كثير، فاصبر، ولا يدفع حزنا، وما هو نازل فَكَأَنْ قَدْ، والسَّلَامُ [14]، ثم يعقّب على مثل هذا القول: أي عن فصاحته – صلى الله عليه وسلم-: حديث الرسول ذروة ما انتهى إليه كلام العرب بلاغة وروعة وإشراقا يخلو من التكلف المسجوع والحوشي الثقيل وهما آفة الكلام العربي في عصره، بعد عن الاختصار مع الحاجة، وعن التطويل بغير حاجة؛ إذا شبّه أو مثّل التقط أقرب الأشباه و ألطفها دون تقعير ولا تعقيد فإذا نصح أو أرشد صاغ نصائحه حكما مرسلة في ألفاظ مضيئة كالنّجم يبدو عليها جلال النبوّة وأثر الإلهام وحلاوة الصدق، أرسل أحاديثه فيض الخاطر وعفو البديهة دون سابق تحذير ولا تفكير...([15]).حديثه بأساليب العرب حتى حار في فصاحته الصحابة الكبار أمثال أبي بكر وعمر وعلي.

ننقل عن الرّافعي رسالة بعث بها النبيّ عليه الصّلاة والسّلام إلى بعض الملوك لتدرك مقدار ما تبلغه فصاحته وبلاغته عليه الصّلاة والسّلام يقول:"إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب، وفيه: وفي التيعة شاة ولاضناك وانطوا الثبجة وفي السيوب الخمس، لا مقورة الألياط ومن زنى مم بكر فاصعقوه مئة واستوفضوه عاما ومن زنى مم ثيّب فضرّجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين ولا عمة في فرائض الله تعالى وكل سكر حرام، وائل بن حجر يرفل على الأقيال" (إعجاز القرآن البلاغة النبوية ص319).

الأقيال (الملوك)، العباهلة (المقرّون على ملكهم)، الأرواع (يروعون بالهيبة والجمال) والمشابيب (المشبوب الزاهر اللون) ، التيعة (أربعون شاة)، المقوّرة الألياط (المسترخية الجلود)، الضناك (السمينة الموثقة الخلق)، أنطوا (أعطوا)، الثبجة (الوسط)، والسيوب (العطية).

ويقول الرّافعي في وصف بلاغته وفصاحته:" يتكلم بكلام إنساني هو هذا الحديث الذي يجيء في كلمات قويّة رائعة، فيها في بلاغتها كالشباب الدائم."[16]

السيوب (المراد به الركاز)، الصقع (الضرب)، الاستيفاض (النفي والتغريب)، الأضاميم (الحجارة الصغيرة)، التوصيم (الفترة والتواني)،يترفل (يترأس).فقد كان عليه الصّلاة والسّلام فصيحا وبليغا إلى حدّ أن لا يتكلّف ولا يتصنّع بل يذمّ ذلك، فهو الأميّ الّذي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فقد أعجز البلغاء والفصحاء، وإن أنت أردت تتبّع كلامه، متسقّطا أو مصحّحا، فلن تجد موضعا للتّصحيح أو التّنقيح، ولا تملك بعدها إلاّ الإكبار والإعجاب، مهلّلا مكبّرا.

فنون بلاغة النبيّ صلى الله عليه وسلم

<u>أولاّ</u>: الإيجاز وجوامع كلمه –صلى الله عليه وسلم- :

بداية علينا أن نذكر أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- قد عرف بجوامع الكلم وهو ما قاله بنفسه: (أوتيت جوامع الكلم ومثله معه). وقبل ذلك وبعده عليه أن نعلم أن الإيجاز والإطناب من البلاغة في الذروة، حتى ذكر بعضهم معرفا البلاغة بأنها الإيجاز. فما الإيجاز؟

أورد الجاحظ في بيانه أنّه ورد عن الفضل قال:" قلت لأعرابي ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل" ([17])، ومعنى التعريف أن يكون كلام الرجل موجزا مؤديا المعنى، أو مطنبا فيه من غير إكثار مخلّ، ويدعم هذا قول الرسول الكريم: "أبغضكم إلي الثرثارون المتفيقهون" ([18]) ، فالفصاحة المحمودة ما كانت بين إيجاز مخلّ وإطناب ممل، وعليه فعلماء البلاغة يقسمون الكلام إلى ثلاثة:

1- تعبير على قدر المعنى أي لفظ مساو للمعنى فهو عندهم المساواة وهو الأصل المقيس عليه.

2- وتعبير على حد المعنى مجاوز فهو الإطناب.

3- وتعبير ناقص على قدر المعنى فهو الإيجاز.

والبليغ في هذه الأنواع الثلاثة إنما يتحكم فيه المقام، لذلك قالوا لكل مقام مقال، فالكلام على حسب الضرورة والموضوع، فإذا استدعى المقام الإيجاز أوجز وإلاّ أطنب، فليس كلّ إطناب ممل ولا كل إيجاز مخلّ.

فالإيجاز: "هو جمع المعان المتكاثرة تحت اللفظ القليل الوافي بالغرض مع الإبانة والإفصاح"([19]). والأهم من هذا استيفاء المعنى أي الإحاطة به وحذف فضول الكلام يقول الجاحظ عن الإيجاز: " هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف..."([20]).أما الجرجاني فعرّف الإيجاز بقوله: " آداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة، أو هو التعبير عن المعان الكثيرة باللفظ القليل.."([21]). أي معان كثيرة مع ألفاظ قليلة، يتوخى الإبانة والإفصاح، فالألفاظ وتناسقها ومناسبتها لحال المخاطب، وعليه فمنظومة بلاغة النبيّ –صلى الله عليه وسلم- لا تخرج عن هذا، أي إيجاز بليغ، فالبلغاء إنما يحمدون بهذا المقياس، إصابة المعنى بلفظ قليل فهذه بنت الحطيئة تسأل أباها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ قال: لأنها في الأذن أملح وبالأفواه أعلق. ([22]). أي اللّفظ الوجيز الزّاخر

بالمعنى الكثير يستعذبه الناس، ويطربون له فيسهل عليهم حفظه، وتقبّله، ومن ثمّ تداوله، ونشره .

لهذا قد وجدنا جوامع كلمه –صلى الله عليه وسلم- لا تخرج عن هذا الإطار فهي موجزة قليلة الحروف عظيمة المعاني، خذ على ذلك أمثلة عديدة: (الدّين النصيحة)، (الدّين المعاملة)، وقوله: (لا يخافنّ العبد إلا ذنبه ولا يرجونّ إلاّ ربّه)، فالخوف من مسائل العقيدة، فلا تعظيم ولا تقديس إلاّ لله عز وجل فهو الأحقّ بالخوف والوجل، ومن مقابلته بذنوب عظيمة، لذا وجب عند سماع هذا القول التعجيل بالتوبة، وقوله: (لا يرجون إلا ربّه) فهنا إشارة إلى كرامة المؤمن وأنه يتوجّه بالسؤال إلى ربّه حفظا لماء وجهه أو أنّه إذا أذنب وكثرت ذنوبه فلا يقنط أو يفقد الأمل وهذا موافق لما ورد في القرآن الكريم الزّمر 53: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) و من الأمثلة الأخرى ما ورد في الإيجاز من جوامع كلمه قوله: (إنّ من البيان لسحرا)، وقوله: (الطمع فقر واليأس غنى) أي اليأس عمّا في أيدي الناس، وتلك قناعة وكرامة.وقوله:(رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى).

وقد فسّر المناوي قول النّبي – صلى الله عليه وسلم- في جوامع الكلم (أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا) بأنّها **ملكة** أقتدر بها على إيجاز اللفظ مع سعة المعنى بنظم لطيف لا تعقيد فيه ، يعثر الفكر في طلبه ولا التواء إيجاز الذهن في فهمه، فما من لفظة تسبق فهمها إلى الذهن إلّا ومعناها أسبق إليه حتى صار ما تكلم به كثير المعاني قليل الألفاظ ، وقوله (اختصارا) مصدر مؤكد لما قبله فهو الجامع لما تفرّق قبله في الرّسل من الكلام المخصوص بما لم يعطه أحد منه في المزايا والأفضال فمما اختص به عليهم الفصاحة والبلاغة.([23])

ومن جوامع كلمه –صلى الله عليه وسلم- قوله: " ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " وهو موافق لقوله تعالى: { فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم}-التغابن 16-

وعن الفضول والتدخل في شؤون الآخرين قال: " من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه" حديث حسن([24])، روى هذا الحديث قرّة بن عبد الرحمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة وصحّح طرفة ثم قال : في هذا الحديث، هذا من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة.

وعن أبي ذرّ: " من حسن كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه" رواه ابن جبل.وفي العبادات قوله:" الحج عرفة " حيث اختصار الركن الخامس في عبارة موجزة، أي من لم يشهد عرفه زمانا ومكانا فقد ذهب حجّه.

ومن الإيجاز ما ورد في دعائه لأبي سلمة عند موته: " اللهم ارفع درجته في المهتدين وأخلفه في عقبه في الغابرين له ولنا يا رب العالمين ". عقب ابن الأثير أنّ هذا الدعاء جامع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها .([25])

حديث (إنّما الأعمال بالنيات) تجده في كلّ أبواب الفقه. فبلاغته أنّه كلام مطبوع لا مصنوع.([26])

عن دعائه قال ابن الأثير: " فأوله مفتتح بالمهم الذي يفتقر إليه المدعو له في تلك الحال وهو رفع درجته في الآخرة، وثانيه مردف بالمهم الذي يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا وثالثة مختتم بالجمع بين الداعي والمدعو له"([27])

أهمية الإيجاز (جوامع الكلم):

التبليغ أولا: أوردنا قول الحطيئة عندما ردّ على ابنته :" لم قصارك أكثر من طوالك ؟ " فلعل إجابته كانت شافية ندرك منها أهمية جوامع الكلم فهي أعلق بالأفواه أي سهل حفظها وإدراك معانيها، وفي الأذن أولج أي لا تعقيد في تركيبها، ولا غرابة في ألفاظها ، فصيحة لطيفة سهل استيعابها وحفظها.

" في الإيجاز أسلوب بلاغي – إن لم يكن هو البلاغة عينها- يقوم على جمع المعاني الغزيرة في الألفاظ القليلة، حذفا و اختصارا مع مراعاة الوضوح والتأثير في المتلقي، وخير ما يمثل الإيجاز، الأمثال والحكم، وما اصطلح عليه عامة الناس من محذوفات".([28])

يرى الرافعي في فصل: ' اجتماع كلامه وقلته' : " ومن كمال تلك النفس الكريمة وغلبة فكره - صلى الله عليه وسلم – على لسانه ، قلّ كلامه، وخرج قصدا في ألفاظه محيطا بمعانيه تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة، والكلمات المعدودة كلّ معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظا ولكن حركات نفسية في ألفاظ، وبهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه وخلص أسلوبه فلم يقصر في شيء ولم يبالغ في شيء".([29])

فقد امتلك أسلوبا كما يقول النقاد – سهلا ممتنعا – فصيحا بعيدا عن الغرابة والتنافر والتعقيد، ألفاظا وتراكيب، لذلك كانت العرب تطرب للكلام المختصر البليغ الذي يصيب المرمى بأقل اللّفظ يمجّون التطويل الممل السمج على النفس، وهو ما أكده الجاحظ عن إيجازه:" قلّ عدد حروفه، كثر عدد معانيه، جلّ عن الصّنعة، نزّه عن التكلف استعماله المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب والسوقي الهجين، والغريب الوحشي، وشّد بالتأييد ويسرّ بالتوفيق وغشاه بالقبول وألقى الله محبته عليه وجمع بين المهابة والحلاوة".([30])

ومن أهميته أنه يحفظ بسرعة، وهو ما أكّدته عائشة رضي اللّه عنها بوصفها له ، (لوعدّه العادّ لأحصاه).

لذلك وفي لمح من البصر يحفظ ويدرك المعنى سريعا، أنظر إلى قوله - صلى الله عليه وسلم- : (لا ضرر ولا ضرار) قول خاصّ بالمعاملات، في الأخلاق في العقود وفي غيرها ".فالجاحظ يرى مرّة أخرى أنّ الإيجاز: أداء حاجة المعنى سواء أكان الأداء في ألفاظ قليلة أم كثيرة.([31]) أما ابن رشيق القيرواني فينقل عن النّحوي الرّماني أنّ الإيجاز. هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف([32]) .ومنه نرى أنّ أهمية جوامع الكلم تتمثّل في الإيجاز وفي فوائد أخرى منها:

- تقريب الفهم، إخفاء الأمر على السامع(أنا من ماء).
- تجنّب السآمة والضجر، ضيق المقام.
- تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل، لتسهيل حفظ هذه الجوامع ومن ثمّ تمثّلها خاصة وأن الأمة في مبدئها كانت أميّة، حديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ). جاء في كتاب الصناعتين (عليكم بالإيجاز فإنه إفهام والإطالة استهام) ([33]). والإيجاز نوعان : إيجاز قصر، وإيجاز حذف. فالقصر كما عرفناه: احتواء اللفظ القليل بالمعنى الكثير، دون حذف.

أما إيجاز الحذف: ففيه تحذف أجزاء من الجملة ويسقط بفضول عن الكلام وأمثلته: قوله –صلى الله عليه وسلم- :" لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد" والمقصود لا صلاة أفضل وأكمل لجار المسجد إلا في المسجد، وقد علم من غير هذا الموضع جواز الصلاة بالبيت أو في مكان آخر.([34])

فقد ورد عن ابن الأثير أن إيجاز الحذف عجيب الأمر، شبيه بالسحر، لأن ترك الذكر أفصح من الذكر، وهو جائز مع بقاء ما يدل عليه وإلاّ لكان لغوا في البلاغة متى أظهر المحذوف، صار الكلام إلى شيء غثّ لا يناسب ما كان عليه من الطلاوة والحسن.([35]) وأمثلة الحذف قول الرسول(ص) لجابر عندما تزوج ثيّبا: "هلاّ بكرا تلاعبها وتلاعبك" أي هلاّ تزوجت بكرا (جارية) فحذف الفعل. ([36])

ومن فوائد الإيجاز التوكيد والمبالغة والتخصيص، وبلاغة الحديث في إظهار الجدّ والتنويع رهن بالنّبي –صلى الله عليه وسلم- المعلّم إذ هو بصير بشأن من يعلمهم فهو يدفع عنهم الملل ويقوي فيهم العزيمة للتعلم، كما يهدف إلى الإصلاح ([37]). فالعرب أهل فصاحة فهو ما يهم من نظر للكلمة وقيمتها.

سبقه إلى أقوال وعبارات لم يسبقه إليها أحد:

لقد أورد الجاحظ وغيره من الأدباء والنقّاد أنّه –صلى الله عليه وسلم- أورد أقولا لم يسبقه إليها أحد من ذلك:

1. في غزوة بدر (**هذا يوم له ما بعده**) شبيه بقوله تعالى: {فله ما سلف}. البقرة 275.

2. في غزوة حنين (**الآن حمي الوطيس**) والوطيس هو التنور، والمناسبة لهذا القول هو بعد انهزام جيش المسلمين أمام عموم القبائل المتحالفة في حنين، ورغم عدد المسلمين (12ألف)، وقالوا لن نغلب من قلّة، عندها نادى العباس بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أهل العقبة، يا للمهاجرين والأنصار، عندها ثبت الناس، وعادوا للقتال وانقلبت الكفّة، قال عليه السلام: (الآن حمي وطيس المعركة وظهر الحق وانكشف الباطل).

3. **مات حتف** أنفه عبارة تبيّن المصير الذي يلقاه الإنسان عندما يموت على فراشه وليس في المعركة، وقد اقترب منه قول خالد بن الوليد في فراش موته: (وها أنا أموت موت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

4. **المضعف أمير الركب**، من وصايا النبيّ –صلى الله عليه وسلم- للجيوش أو للقوافل المسافرة مراعاة أضعف من في الركب، يعضده قول آخر (**سيروا بسير أضعفكم** والأول أبلغ) ([38]).وقوله في النّساء:(رفقا بالقوارير)، قد ناب المفعول المطلق(رفقا) مناب الفعل المحذوف.

5. قوله للأنصار (**إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع**) واصفا لحالهم بخلوص نيّتهم وأعمالهم للإسلام بأن لا مطمع لهم في مغنم، بل حب الله ورسوله، قد تزيّنت العبارة، بلون من البديع، كالسّجع، بين الفزع والطّمع، وبالطباق بين تكثرون وتقلّون، وهي في نفس الوقت مقابلة .

6. (**قضية لا ينتطح فيها كبشان**) قول فصل في قضية متنازع عليها إذا كانت البيّنة واضحة، فلا يتطرّق إليها الشكّ.

7. (**أفضل الصدقة جُهْد المقلّ**). تصوير لحبّ الفقراء في المساهمة في التضامن الاجتماعي أسوة بإخوانهم الأغنياء، فلا تكليف عليهم

8. (**جماعة على أقذاء وهدنة على دخن**) من حديث الفتن (هدنة على دخن) وصف دقيق لحال النزاع والفتن، وانعدام الثّقة بينهم.

9. (**الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة**) رواه البخاري.إشارة إلى قلّة النوع المطلوب، فالمقصود الكيفية لا الكميّة، وهو ما يسعى إليه.

10. (**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم**) أي تتظافر جهود المؤمنين، والأمر يهمّ الجميع .

11. (**لا يلدغ المؤمن من الجحر مرّتين**). تحذير من الغفلة، ووجوب الاستفادة من الأخطاء

12. (**سعيد من وعظ بغيره**).دعوة للاستفادة من أخطاء الآخرين، فهذا من النّباهة والفطانة والكياسة، وإلاّ اتّهم الإنسان بالغفلة.

13. (**طلبك الشيء يعمي ويصم**).الحرص على طلب الشيء بلهفة وحرقة قد يدفع صاحبه إلى الخطأ وارتكاب الحماقات، فيتورّط.

14.(**اليد العليا خير من اليد السفلى**).قول فيه دعوة إلى البذل، وهذا الظّاهر، أمّا الباطن فهو دعوة للكسب لأنّه سبيل الكرامة.

15.(**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**).تحذير من الاغترار بالأماني وطول الأمل، لأنّ نهاية الأمر رحيل عن الدّنيا بالموت

16. (**لا ضرر ولا ضرار**). أحكام الإسلام جاءت لنفع المسلمين فردا ومجتمعا، لا ضرر فيها أي في تشريعها، ومنه شرّع الأصوليون قاعدة: درء المفسدة أولى من جلب المنفعة.

بشرية النبيّ –صلى الله عليه وسلم-

والمقصود من هذه الفقرة أنّ النّبيّ –صلى الله عليه وسلم- بلغ هذه الذروة من الفصاحة تأييدا من الله من جهة، وفي نفس الوقت توفيقا منه معدّا له ليكون المبلّغ عنه لأعظم كلام على الإطلاق وهو القرآن الكريم، فاجتماع الأخلاق فيه نتيجته اصطفاء اللّه له ليكون رسوله للعالمين في آخر رسالة للنّاس كافّة، وليس للعرب وحدهم .يقول الرافعي: "ولا يعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له –صلى الله عليه وسلم- إلا توفيقا من الله، وإذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ([39]).

فهذا هو التّوفيق، والتوفيق من الله إعداد، لنبيّه عليه السّلام لكي يبلّغ عنه متحديا هؤلاء العرب وإعدادهم في نفس الوقت لاحتضان هذا الدين ثم تبليغه للعالمين، فلا أحد يعلم أسلوب القرآن إلاّ العرب فقد نزل بلسان عربيّ مبين؛ في نفس الوقت نجد أن النبي –صلى الله عليه وسلم- لم يخرج عن بشريته، فهو منهم وعاش بينهم وقد رعى الغنم وتاجر وسافر وخالط، إلاّ أنّه صنع لنفسه منهجا كاجتناب عبادة الأوثان، والبعد عن الفحش ومواطن اللّهو، ثمّ الخلوّ بنفسه في الجبال للتأمّل والتحنّث، رفضا للوضع الّذي آلوا إليه، وهو لا يدري أن سيكون نبيّ آخر الزّمان .يقول البوطي: "إنّ الحديث النّبوي الشّريف لا يمكن أن يرقى إلى

أسلوب القرآن الكريم، وذلك لتميّزه بالطبيعة البشرية.. –ويقول-: ومهما كان ذلك متجليا في أسلوبه وخطابه يظل مصطبغا بالطّبيعة البشرية وخاضعا لانعكاسات المشاعر الإنسانية ([40]). فليس لأحد الحقّ في الطّعن في سيّد الخلق ادّعاء أنّه ملك، أو أنّه خلق من طينة أخرى، فهو كسائر البشر، يأكل ويشرب ويتزوّج ويمشي في الأسواق، بدليل قوله تعالى في آية الفرقان 07 (وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا)، أي أنّ الفرق بينه وبينكم هو أنّ اللّه اصطفاه واختاره وأنزل عليه ملك، محمّلا إيّاه أمانة، ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا، فلم العجب، هذا عن العرب قاطبة، أمّا عن المسلمين، وما أصابهم من ذهول يوم موته، كعمر بن الخطّاب، فكان تذكير أبي بكر له ولغيره ببشريّة الرّسول (ص)، وأنّه يتعرّض لما يتعرّض له سائر النّاس، فيصيبه ما يصيبهم، ثمّ تلا قوله تعالى: (وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئا وسيجزي اللّه الشّاكرين) آل عمران 144.

وللتّدليل أيضا على ذلك- على بشريّته - يقول البوطي :" إنه يلتبس عليك كلامه بكلام الصّحابة والتّابعين، وآية ذلك أنّك لا تأمن أن يلتبس عليك كلام الرّسول –صلى الله عليه وسلم- بشيء من كلام عمر بن الخطاب أو غيره من الصحابة مثلا، إذ القدر المشترك بين الكلامين هي ظهور الطّابع البشري فيهما من شأنه أن يتغلّب على فرق الدرجة البلاغية التي يمتاز بها حديثه، عليه الصّلاة والسّلام ([41]).

وقد التبس علينا كثير من الأقوال، حتى عددنا من الأحاديث قول عمر رضي اللّه عنه: (علّموا أولادكم السباحة والرّماية وركوب الخيل)، وقول حسن البصري تعريفا للإيمان: (ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتّحلّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل).

-البيان في بلاغة النّبي –صلى الله عليه وسلم-

كما هو معروف فإنّ البيان يضمّ التّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فهذه وغيرها قد تجلّت في كلام النّبيّ- صلى الله عليه وسلم-بقصد تبليغ ما كلّف به في ثوب جميل وعبارة واضحة المعاني وتراكيب صحيحة وفق السّنن العربيّ، وهو ما عناه ابن جنّي بانتحاء سمت العرب وطرق تصرّفها، يقول:"النّحو هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرّفه من إعراب وغيره.."[(42)]، إذا فقد سار النّبيّ (ص) في بلاغته على مقتضى كلام العرب، في من بيت شريف عرف بالبلاغة والفصاحة، فكيف يشذّ هو عنهم وقد أوتي من النّباهة والذّكاء، حتّى ارتقى في درجات الفصاحة والبيان معترفا هو بذلك" أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش" يقول البوطي: "إذا شبه أو مثّل التقط أقرب الأشباه وألطفها دون تقعير أو تعقيد... نصائحه في ألفاظ مضيئة

كالنجم يبدو عليها جلال النبوّة .."[43]. لأنّ الهدف التّبليغ، لذا كان يختار كلامه اختيارا، نائيا عن التكلّف والتشدّق، أو أن يعلو الكلام غاية في حدّ ذاته، فقد كان تمثيله وتشبيهاته من أجل تقريب المعاني،أو من أجل الإيضاح، أو التّهديد والوعيد والتحذير، أو الترغيب والتحبيب... فمن التّنفير قوله عليه الصّلاة والسّلام: (العائد في هديته أو صدقته كالعائد في قيئه) [44]، فهذا تشبيه صورة بصورة، داعيا إلى التّهادي والتصدّق، بغرض تقوية أواصر المحبة (تهادوا تحابوا) وفي نفس الوقت يحذّر من العودة في الهدية وهو خلق مرفوض، فتتغيّر القلوب، وتحل العداوة بدل المحبّة؛ لذا قد شبّه العائد في الهدية كمن تجرّع قيئه، فأيّ صورة مقززة منفرة كهذه الصورة. فهو يمثّل ويشبّه بأحسن تمثيل وتشبيه، باختيار أفضلها حسب المقام ومقتضى الحال.

ومثال ثان يقول فيه: (في الشّجر شجرة كالرجل المسلم هي النخلة) [45]. من المعلوم أن صورة التشبيه تكون أقوى في المشبه به من المشبه، لذلك نلجأ إلى تمثيل المشبه بالمشبه به كقول الشاعر النّابغة يمدح الملك النّعمان بن المنذر[46] :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد من هن كوكب

فقد شبّه الملك النّعمان بالشّمس، وغيره الملوك بالكواكب، فصورة التّشبيه أقوى في المشبّه به، لكن تمثيل النّبي (ص) بالشّجرة عكس الصّورة، إذ صورة هذا التشبيه جعلت المشبه أقوى من المشبه به ، وهو ما سماه البلاغيون بالتشبيه المقلوب، وهذا لغرض الإعلاء من مكانة المؤمن والمسلم.

ومثال آخر: وللتحذير من الفرق الضالة، والدّاعيّة إلى التشرذم بين المسلمين، إذ ابتعدوا عن معالم الدّين الواضحة فضلوا وأضلوا، علموا رسومه، وما أدركوا حكمه ودلالاته، خرجوا عن تعاليم الدّين فأحدثوا فتنا عظيمة ومازالوا، قال عليه الصلاة والسلام: (يمرّقون في الدين كما يمرق السّهم من الرّميّة..)[47]، فمصيبة الدين والمسلمين لمّا خرج فيهم قوم حدثاء الأسنان يهدون بغير هدى النبيّ عليه الصّلاة والسلام وانظر كيف بيّن خروجهم عن الدّين بخروج السّهم من الرّميّة؛فهذا من الإنذار والتّحذير ومن عظم المصائب والفتن الّتي ستحدث.

ومن التشبيه بغرض النصح والإرشاد وذلك بإيقاظ النّائمين وتنبيه الغافلين والشّد على يد المتذبذبين، قوله عليه الصلاة والسلام: (إنّي أنا النذير العريان) [48] .فالتشبيه يبدّد الشك والريب عن نفوسهم وبالإقناع يثير تفكيرهم؛ ومن التشبيه نلمس نصحا وإرشادا ودعوة إلى اغتنام الفرص وعدم تركها هباء سهللا. يقول: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم

كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"(49) .فهذا الحديث لطوله يبيّن أصنافا في تقبل هدي النبيّ-عليه الصّلاة والسّلام- أو تركه، فالناس بأصنافهم كالأرض، والهدى كالغيث الذي نزل عليها.

ودعوته إلى التآخي ونبذ الفرقة والعصبية للعرق أو اللسان أو اللون، يقول مضمّنا هذا المعنى :" الناس سواسية كأسنان المشط" فهذا من التّشبيه المرسل المفصل، ومن التشبيه حديث السفينة "مثلكم كمثل قوم استهموا فأصاب بعضهم أدناها وبعضهم أعلاها، "فأراد من سكنوا أدناها خرق السّفينه لجلب الماء تجنّبا للتّضييق عمّن سكن أعلاها، فقال النبيّ(ص) فإن أخذوا-مَنْ سكن أعلاها-بأيديهم ومنعوهم نجوا ونجوا، أي الطّرفان، وإن تركوهم يخرقون السّفينة، هلكوا وهلكوا جميعا، فهذا تمثيل لمن زعم أنّ الحرية مطلقة، لا حدود لها، والمقصود أنّ حرّية الفرد مقيّدة تتوقّف عند حريّة الآخرين لا تجاوز فيها، وهذه دعوة حضاريّة، لم تبلغها الأمم لا قديما ولا حديثا، وبلغتهما أمّة الإسلام بهذه المثل العاليّة. ومن التشبيه الجميل قوله: (المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأتْرُجّة، طعمها حلو وريحها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيّب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الحنظل،...).

أمّا عن الاستعارة وهي تشبيه حذف أحد طرفيه فكان بذلك أبلغ من التشبيه، لأنّها من بلاغتها تعدّد معانيها والقدرة على الإيحاء والإيماء والإشارة، التلميح بدل التصريح فاللّبيب بالإشارة يفهم.فإعطاء المعاني الكثيرة باليسير من اللفظ، كقول الحُطيئة لعمر بن الخطاب (50) رضي اللّه عنه، عندما سجنه لهجائه المقذع، فلم يجد بدّا من أن يتوسّل إليه بالشّعر نفسه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ، زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

فقوة الاستعارة في الملاءمة بين الطرفين المشبه والمشبه به وإلا كانت رديئة فميزتها أنها أكثر اختصارا، ومن بلاغتها التشخيص للتأثير على نفسية المتلقي وإثارة انفعاله المناسب عن طريق تمثيل المعاني المجردة في صور حسّية؛ وبإفاضة الحياة على الجماد وإكسابه حياة إنسانية، وانتقال الذهن من معنى إلى آخر، أو هي طاقة غير محدودة في التعبير عن العاطفة

والأحاسيس. ومن أمثلة استعاراته –صلى الله عليه وسلم- قوله: (خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها) .

فالطيران لذوي الأجنحة وأراد بهذا التشبيه الذي حذف فيه الطائر السّرعة في تلبية نداء الجهاد، والذّود عن حياض الإسلام والمسلمين.

وقوله: (ضمّوا ماشيتكم حتى تذهب فحمة العشاء) والفحم للسواد فشبه اللّيل واشتداد سواده بالفحم وقد حذف اللّيل وترك قرينة تشير إليه وهو الفحم.كما يستعار لفظ الفحم للون الشّعر، خاصّة مع النّساء فهو من الزّينة، يقول رؤبة بن الحجّاج[51] :

ومقلة وحاجبا مزجّجا وفاحما ومرسنا مسرّجا

(ربّ تقبل توبتي واغسل حوبتي وثبّت حجّتي.....) فالغسل للثياب أو البدن أما الذنوب فشيء معنوي لا يغسل، وإنما يكون بالتوبة.

(غلب عليكم داء الأمم الذين من قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، حالقة الدين، لا حالقة الشعر)[52].فالحلق للشّعر لا للدّين.

(إنّما لا نقبل زبد المشركين أي رفدهم)، فالاستعارة في لفظ الزّبد، ويراد به الرّفد .

(يشيب ابن آدم وتشيب معه خصلتان، الحرص وطول الأمل)، فالشيب حسيّ، فكيف للخصلة ؟ وهي شيء معنوي، ولعلّها الملازمة.

فقد أشار الفراهيدي إلى إيجاز هذا الأسلوب بقوله: "إيجاز للاستدلال، فإن اللفظ إذا قلّ تراءى المعنى متجردا عن حجبه، فيزيده تنويرا وتأثيرا وكأنه أرهف حدّه وجرّب بعده، وهذا ما يجعل الاستعارة أحيانا أبلغ من التشبيه"[53].

المجاز المرسل: إذا كانت الاستعارة من المجاز اللغوي، فإن المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، لعلاقات كثيرة :كالسببية والمسببية والجزئية والكلية، والحالية والمحلية واعتبار ما كان أو ما يكون[54] .

ومن أمثلته –صلى الله عليه وسلم-: (لا تركب البحر إلا حاجا أو معتمرا أو غازيا في سبيل الله تعالى) المجاز في قوله : لا تركب البحر، والمقصود لا تركب سفين البحر، فقد أطلق لفظ البحر وأراد السفين، فالعلاقة محلية، والتّعليل هو: (فإنّ تحت البحر نارا وتحت النّار بحرا).

حديث آخر: (من سرّه أن ينظر إلى شهيد على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه) والعلاقة اعتبار ما سيكون، مستقبلية. حديث: (من كذب عليّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النّار).

الكناية: قد عرّفت بتعاريف عدّة منها: " ترك التّصريح بالشيء إلا بما يساويه في اللّزوم وينتقل منه إلى الملزوم"([55]) . أو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي).([56])، أو هي ذكر الرّديف وإرادة المردوف، كقول إبراهيم عليه السّلام لابنه اسماعيل عليه السّلام: غيّر عتبة بابك. وأراد بذلك تطليق زوجته، وهو المعنى البعيد، لا يفهمه إلاّ الأذكياء وذوو الفطانة، ولو أراد المعنى القريب وهو تغيير عتبة الباب لما كان هناك مانع من ذلك.

وهي تنقسم إلى ثلاث: كناية على صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة. ومثال ذلك من أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم-:

1. (ويحك يا أنجشة –أنجش – رويدك، رفقا بالقوارير).فقد أراد الموصوف (النساء) إذ شبّههن بالقوارير لرهافتهن فيجب أن يلقين من العناية والاهتمام، وقد تكون استعارة من باب تشبيه النّساء بالقوارير، فحذف النّساء وترك القوارير، والقرينة رفقا.

2.(إياكم وخضراء الدّمن، المرأة الحسناء في المنبت السوء.) فلو توقّف عند قوله: خضراء الدّمن، وهي النبتات النّامية في المزابل، لكان لها معنيان: القريب الواضح، والبعيد الّذي يجب أن ينشط فيه الذّهن لمعرفته، لذا قطع النّبيّ (ص) حيرتهم بقوله:المرأة الحسناء في المنبت السّوء.

ففي الحديث ما ترى فيه من التشبيه ومن الكناية .

3. (ورد عن أصحابه أنهم كانوا لا يتفرقون إلاّ عن ذواق إذا خرجوا من عنده)، والذّواق الطعام، أو طيب الكلام، فقد يفهم المعنيان .

4. (أسرعكن لحاقا بي أطولكنّ يدا) كناية عن الجود والكرم.فطول اليد تكنّي به العرب عن السّخاء والجود والكرم وبذل المعروف للنّاس.

5. (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن وحنا جبهته واضعا سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟) كناية عن قرب القيامة.

التورية: قد جاء في تعريفها (هي أن يذكر المتكلم كلمة لها معنيان: قريب غير مقصود، ومعنى مقصود بعيد.([57]) . فقد تتلتبس بالكناية.

أهميتها: إثارة الانتباه لالتقاط المعنى المقصود، لذا يصدق عليها قول القائل: إنّ اللّبيب بالإشارة يفهم، مثلما ورد عن نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام في إجابته للرّجل الّذي سأله يوم للهجرة إلى المدينة المنوّرة: ممّن أنت ؟ قال: (أنا من ماء) حيث فهم الرجل أنه من ماء العراق، وهو يقصد خلقت من ماء، وبهذا تجنّب الكذب من جهة، ولم يكشف عن نفسه لأنّه كان مطلوبا من قريش، وهذا أيضا من حسن التخلّص من الورطات. وقول له آخر لسعد بن معاذ، عندما أرسله إلى اليهود ليستعلم حالهم أمازلوا على العهد أم خانوا ؟ فقال له : (ألحن لي لحنا أفهمه)، تورية، حتّى يورّي عن أصحابه وهم محاصرون يوم الأحزاب، فلا يفتّ ذلك في عضدهم، فلمّا رجع سعد وقد استيقن من الخيانة، أرسل العبارة كتحذير: (عضل والقارة)، ففهم النبيّ أنّها خيانة اليهود، وعضل والقارّة قوم غدروا بأصحاب النبيّ (ص).

البديع (الزّخرفة اللّفظيّة)

وتشتمل المحسنات المعنوية (كالطباق والمقابلة) والمحسنات المعنوية (كالسجع والجناس) فلقد كانت ترد هذه المحسنات في كلامه –صلى الله عليه وسلم- عفو الخاطر دون تكلف، ولقد مدح الله رسوله لورود هذا الطبع فيه حيث قال في آية ص 86: (وما أنا من المتكلفين)، ثمّ كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن التشادق حيث قال: (إياكم والتشادق)، والتّشادق تكلّف الصنعة اللّفظيّة، بتعمّد الزّخرفة الكلاميّة؛ فقد نهى عن السّجع المتكلّف، فقد قال: في موقف من المواقف: (أسجع كسجع الكهّان ؟) فإنما هو يذمّ، السجع المتكلّف الذي يذهب ويحصر في اللّفظ .

ومن المحسّنات المعنويّة، **الطّباق المقابلة**، أمّا عن مقصود الطّباق، فهو: الجمع بين الضدّين أو بين الشّيء وضدّه، في كلام أو بيت شعر، أمّا عن المقابلة، فهي: إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللّفظ، على وجه الموافقة أو المخالفة؛ ([58])، كقوله عليه الصّلاة والسّلام: "نعمت المرضعة وبئست الفاطمة" . فقد قابل بين صفتي المدح(نعمت) و(المرضعة) من جهة، وبين صفتي: (بئست) و(الفاطمة) من جهة ثانيّة؛ فالعبارة مقابلة، وطباق في نفس الوقت، ولجوؤه لهذا النّوع من الصياغة لما له من الأثر الجميل على الأسلوب، خاصّة من جهة المعنى الّذي يرمي إليه.

وقوله للأنصار: (إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع)، مقابلة بين قوله: تكثرون، وتقلّون، وقوله: الفزع، والطّمع،، وفي المقابلة طباق في نفس الوقت، كما نلمس الجرس الموسيقي في صوت العين، لندرك أنّه سجع تتوافق في كلمتا الفزع والطّمع، فلا تحسّ فيه تكلّفا.

وقوله: (إنّ الرِّفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، والخرق-العنف-لا يكون في شيء إلا شانه)، فقد قابل بين: الرّفق والخرق، وبين: شانه وزانه.

ومنه فالطباق والمقابلة بين المتضادين لبيان الفرق، أو لتزيين المعنى، كمثل قوله: (رحم الله عبدا قال خيرا، فغنم أو سكت فسلم) وقوله: " خير المال عنّي ساهرة لعين نائمة)، وقوله:(اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك " تدرّج في مراحل العمر؛ فيلاحظ فيها من الإطناب الجميل غير المملّ، ضرورة، لتوضيح المطلوب منه.

أما عن **السّجع**: فهو: أسلوب من أساليب القول أو فن من فنون الخطابة والكتابة، وهو توافق الفاصلتين من النّثر على حرف واحد، وهذا معنى قول السكّاكي: "السّجع في النّثر كالقافيّة في الشّعر." ([59]). أو هو "موالاة الكلام المنثور على روي واحد، فتجيء الكلمتان في آخر الفقرتين على حرف معيّن، فيكسب النثر ضربا من الموسيقى والتنغيم، وليجاري عاطفة قائلة، ويثير نفسا سامع" ([60])، وهو" اتفاق الفاصلتين في الحرف الأخير"([61]). لكن السّجع المقبول هو ما سلم من التكلّف وبرئ من التعسّف، لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه([62]).وهو ما جرى سلسالا، لا يحسّ فيه سامعه أنّه قد تكلّفه، فكثير من الأدعية والأحاديث كانت على هذا المنوال فحفظها المسلمون بيسر وسهولة، ومن ثمّ تناقلوها فيما بينهم جيل يرويها عن جيل، فقد كان يطربون للموجز من الكلام المزخرف.

وقد نفر كثير من العلماء منه، ربّما يقول محمد عبد الكلاعي: لعدم فهمهم الدّقيق للحديث النبوي الشريف (أسجع كسجع الكهّان) صحيح البخاري19/4. لأنّ الكهّان إنّما يتعمّدون هذا النّوع من السّجع تدليسا وكذبا على النّاس لأكل أموالهم بالباطل، كالّذي وصلنا عن مدّعي النبوّة سجاح التّغلبيّة، وطليحة الأسدي، والأسود العنسي ومسيلمة الكذّاب.

لكن المتأمّل والمتتبّع لأقوال الرسول –صلى الله عليه وسلم-وهي كثيرة قد تلوّنت بالسّجع ينساب عفو الخاطر، هكذا على السجيّة بلا كلفة فيه وأمثلة ذلك:

- (قضاء الله أحق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق)([63]).
- (ماذا فعل النغير يا أبا عمير) التصغير للتّدليل والتّحبيب،و السجع بين النّغير وعمير

.

- (الخيل معقودة في نواصيها الخير).جناس ناقص بين الخيل والخير.
- (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام).فقد اتّفقت أربع كلمات في حرف الميم.

- في التّحصين لابن ابنته: (أعيذه من الهامّة والسّامّة ومن كلّ عين لامّة).فقد اتّفقت كلمات: الهامّة والسّامّة واللامّة في روي الميم.

- وقوله: (ارجعن مأزورات غير مأجورات)[64] - (اللهم اقبل توبتي واغسل حوبتي) ، قوله (اللهم أعط منفعا خلفا وأعط ممسكا تلفا). عبارات قصيرة ملفوفة في ثوب جميل قشيب، كالطّباق، والمقابلة ، والسّجع، ويختفي وراء هذا معانٍ عديدة جليلة، ونصائح ثمينة غاليّة.

و**الجناس** ضرب من الموسيقى كالسجع، بتشابه اللفظتين كلّيا أو جزئيا مع اختلاف المعنى: (اللهم كما حسّنت خَلْقِي فحسّن خُلُقِي)، جانس بين لفظي (خَلْقِي) ولفظ (خُلُقِي). وفي قوله: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة).جانس بين لفظي:(الخيل) و(الخير).

أهمية السجع

حركة الفكر تتجلى في تغير الكلام تبعا لقصد المتكلم وما يحيط به من ظروف وأحوال، ومنه فالتّضادّ يعمّق المعنى، يرد عفوا لينسجم مع طبيعة الكلام النّبوي، من خلال مقابلة كلمات أو تراكيب مع بعضها البعض، وهنا تتجلّى المعاني المراد الوصول إليها أو تبليغها، كما يراد من التجنيس: تقوية نغم الجرس الموسيقي للألفاظ، وبثّ الحركة والحيوية فيها، وبالتّالي تقوية الإيقاع وتعميق الدلالة، مثلما ورد في الحديث الشّريف: (الظلم ظلمات يوم القيامة)، فقد جانس بين لفظتي الظلم والظّلمات، لما بينهما من جامع الحلكة والسّواد المادّي والمعنوي.

خاتمة

لاشكّ أنّ المتتبّع لسيرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقف على جوانب عديدة مشرقة من سيرته سواء في أخلاقه أو معاملاته أو أوصافه وصفاته، إلاّ أنّ المشتغلين باللّغة تستوقفهم خطبه وأحاديثه نظرا لما اتّسمت به من بلاغة وفصاحة وبيان، فقد أوتي جوامع الكلم، وانماز بها، معانٍ عديدة في عبارات يسيرة خلب بها لبّ ذوي الألباب من فصحاء العرب وغيرهم من عجم وعرب، جاعلا من صور البلاغة المتنوّعة مطية لإبلاغ دعوته كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وضروب فن القول الأخرى من تورية وسجع وجناس وطباق ومقابلة

وغيرها..وما خلصنا إليه بحق أنّ النّبي محمد عليه الصلاة والسلام هو أفصح العرب بلا منازع في محطّات عدّة :

- من كمال فصاحته أنّه كان يكلّم كلّ قوم بلغتهم، وهذا دليل على سعة اطلاعه، وفهمه لضروب القول المختلفة.

– ولم يكن مقلّدا محاكيا لغيره بل انفرد بعبارات لم يسبق إليها، كقوله: مات حتف أنفه، والآن حمي الوطيس.

– ورود السجع وزخرف القول على لسانه عفو الخاطر على السجيّة، دون تكلّف أو تصنّع، هكذا وفي الآلاف من المناسبات دون إعداد مسبق، مثلما ورد في الكثير من أقواله: أطعموا الطّعام وأفشوا السّلام وصلوا الأرحام، وصلّوا باللّيل والنّاس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام.

– تميّزه بجوامع الكلم، وما تحمله هذه العبارات من إيجاز تزخر بالمعاني الجمّة، سهّل على النّاس حفظها ووعيها، كقوله: الدين النّصيحة.

لذا نرى من الواجب علينا العمل على جمع ما صحّ من الأقوال الزّاخرة بأنواع فنون القول وزخرفها، لتدريسها لأبنائنا الطّلبة في أطوار مراحل التّعليم المختلفة، فمن جهة نعرّفهم بجانب مهمّ من أوصافه عليه الصّلاة والسّلام، ومن جهة أخرى يكون لهم هذا كتدريب، على الكتابة والخطابة، فينهلون من معينه.

هوامش البحث

(1) http://portal.shrajhi.com/Media/ID/6775.

(2). الجامع لشعب الإيمان، الإمام الحافظ، البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرّشد ناشرون، ط1، 1423ه/2003م، العربيّة السّعوديّة، ج509/2، وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، الرّافعي مصطفى صادق، ص 289-290.

(3). رواه البخاري، ومسلم

(4). الجامع لشعب الإيمان للبيهقي، ج13/3.

([5]). المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي عبد الرحمان جلال الدين، تح: مجموعة من العلماء، دار الجيل، بيروت، ص 35/34.

([6]). المرجع نفسه ص35.

([7]) إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص316.

([8]). فتح الباري ج440/6، الشفاء للقاضي عياض 1 ص38 نقلا عن تاريخ آداب العرب ج2 ص290 الرافعي.

([9]).الجامع لشعب الإيمان، (م س) ج509/2.

[10]) خرجه أبو يعلى عن عمر، والدار قطني عن ابن عباس، الجامع الصغير 563/1.

([11]).البيان والتّبيين، الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل بيروت لبنان، (د ط)، ج8/2.

([12]).إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، الرّافعي مصطفى صادق، مكتبة رحاب، (د ت)، ص300.

([13]). المرجع نفسه ص282.

[14] . الحديث الشريف والبلاغة النبوية، البوطي محمد سعيد، دار الفكر، 1432هـ/ 2004، ط1،ص 41/40.

[15] . المرجع نفسه، ص 48.

([16]). وحي القلم، مصطفى صادق الرّافعي، دار ابن حزم، ط1426،1هـ/2005م، ج745/3.

[17] .البيان والتبيين، ج1،ص 91.

[18] . تاريخ آداب العرب، الرّافعي مصطفى صادق، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1421ه/ 2000م، ج27/2.

[19] . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، سيد أحمد الهاشمي، دار ابن خلدون، (د ط وت)، ص139.

[20] . الحيوان، الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، تح: عبد السّلام هارون، ط2، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، (د ت)، ج3، ص 86.

[21] . ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، الرّمّاني، الخطّابي، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت)، ص820.

[22] .كتاب الصّناعتين، العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة محمود بك، 1319ه، ص 80.

[23] . فيض القدير، المناوي ج1 ص 563، نقلا عن: مباحث في علم البلاغة وإعجاز القرآن، محمد رفعت أحمد زنجيرط 1428هـ/2007م، دبي، المساهم ص 44.

[24] . صحيح سنن الترمذي، الترميذي، الإمام الحافظ محمّد بن عيسى بن سورة، محمّد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتّوزيع، الرّياض، ط1، 1420ه/2000م، حديث رقم 2318/ج62/2.

[25] . المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ابن الأثير ضياء الدّين، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النّهظة، ط2، ص 323.

[26] . المثل السّائر، ص327.

[27] . المثل السّائر ، ص323.

[28] . المعين في البلاغة، قدري مايو و إميل يعقوب، المعين في البلاغة، ص 219.

[29] . الإعجاز في القرآن والبلاغة النبوية، الرّافعي، ص 300.

[30] . الحيوان، ج3، ص 86 (م س).

[31] . الحيوان، ج6، ص 7.

[32] . العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، القيرواني ابن رشيق، الحسن أبو عليّ، تح: محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401ه/ 1981م، ج250/1.

[33] . كتاب الصناعتين، العسكري، ص194/193.

[34] . المرجع نفسه، ص176.

[35] . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ص 268.

[36] . المرجع نفسه ، ص 285.

[37] . تاريخ آداب العرب، ج250/2.

[38] . ضياء الدين لابن الأثير، ص 327.

[39] . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي،ص283.

[40] . بلاغة الحديث النبوي، ص 33.

[41] . المرجع السابق،ص 33.

([42]). الخصائص، أبو الفتح ابن جنّي، تح: محمد علي النجّار، دار الكتب المصريّة، المكتبة العلمية، (ن ت) ج34/1.

[43] . بلاغة الحديث النبوي، ص 48.

[44] . البخاري 254/2.

[45] . البخاري 292/5، 52/3.

([46]).ديوان النّبغة الذّبياني، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، ص74.

[47] . البخاري 5 /50، مختصر صحيح البخاري، رقم 2612، ص 240.

[48] . البخاري 182/8.

[49] . صحيح البخاري.

([50]). ديوان الحطيئة، ، حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 1426هـ/2005م، ص66.

([51]). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، سيّد أحمد الهاشمي، دار ابن خلدون، الإسكندريّة، (د ت)، ص 14.

[52] . البلاغة العربية، دار العلوم العربية، بيروت لبنان، مصطفى هدارة، ص93/90.

[53] . الإمعان، ص96.

[54] . البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أنيس، دار المعارف مصر، 1964م، ط 16، ص 110.

[55] . البيان والتبيين،ص406، دلائل الإعجاز، الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد، تح: محمود بن محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط3، 1413ه/1992م، ص25.

[56] . في البلاغة العربية، (المعاني البيان البديع)، عبد العزيز عتيق، دار النّهضة العربيّة، بيروت لبنان، (د ط)، ص391.

[57] . البخاري 115/9.

[58] .في البلاغة العربيّة، (م س)، ص495-503.

[59] . في البلاغة العربيّة، (م س)، ص633.

[60] . سجع أم فواصل، أحمد الحوفي، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، 1971م، ص114.

[61] . كتاب الصناعتين، العسكري، ص 260.

[62] . صحيح البخاري 20/2.

[63] . معجم مصطلحات العربية في الأدب واللغة، مجدي وهبة وكمال المهندس، (د ط، ت)، ص197، وينظر: معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ص 333.

([64]). المثل السائر في أدب الكاتب و الشّاعر، لضياء الدّين ابن الأثير، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النّهضة مصر، ج211/1.